القضية الأولى

الإيمان بصدق الرسالة المحمدية
بين العقل والخوارق

obeikan.com

obeikan.com

الإيمان بصدق الرسالة المحمدية بين العقل والخوارق

مقدمة:

أهمية هذه المقالة تتأتى من كونها تعرض لمكون أساسي للرؤية الكونية الحضارية القرآنية، التي تعتبر بمثابة البنية التحتية المسبقة لبناء الثقافة الإسلامية وبالتالي للحضارة الإسلامية، وذلك بوصفها رؤية كونية روحية تتعلق بكليات الوجود وبكليات الحياة الإنسانية وعلاقاتها وتفاعلاتها في هذه الدنيا وعلى هذه الأرض؛ ذلك لأنه لا حُجيَّة لأيَّة رؤية كونية كلية يقينية للحياة، وما وراء الحياة، إلا أن تكون صادرة عن خالق الكون؛ لأن إدراك كليات الوجود ابتداءً، هي عقلًا فيما وراء سقف العقل والمنطق الإنساني.

إن هذه المقالة تهدف إلى توضيح الأساس العقلي والنظري للإيمان، وما يستتبعه من كليات الوجود، وهو ما يكوِّن الأساس الذي تقوم عليه الرؤية الكونية الإسلامية، والذي كان الأساس والنور الهادي للكاتب، الواعي وغير الواعي، منذ عهد طفولته، وعلى امتداد رحلة حياته، الأساس المكين لإيمانه ورؤيته الكونية الكلية الإسلامية، ولمعنى حياته في عالم المادة والروح.

وكل ما يرجوه الكاتب، أن تكون هذه المقالة عونًا في إرساء الأساس اليقيني المتين لدى القارئ أيضًا، كما كانت لدى الكاتب، لتجلية معنى حياته ورؤيته الكونية على أساس توحيدي استخلافي إصلاحي خيِّر بإذن اللَّه.

وما دفعني إلى كتابة هذه المقالة، واستعادة قضيتها من ذكريات الطفولة والشباب، حين كنت على مقاعد الدراسة الثانوية، هو ما لفت نظري في دراستي لقضية المنهجية العلمية الإسلامية، أنه على الرغم من علمية فكر الإمام ابن حزم الأندلسي، وانضباط فكره العلمي، إلا أنه حاد عن منهجه العلمي العقلي، حين واجه قضية الإيمان، وحجية الوحي؛ ليلوذ في قبوله حجية الوحي إلى الخوارق والمعجزات.

ولما كنتُ قد واجهت ذات قضية الإيمان وصدق الوحي في عهد الصبا، شأني شأن بقية البشر في تلك المرحلة من العمر – وجدت فكري قد التزم المنهج العقلي

obeikan.com

العلمي بشأن الإيمان والرؤية الكونية الإسلامية، ولم يكن للخوارق فيما يتعلق بها شأنٌ ذو بالٍ، مما دعاني قبل عدة سنوات إلى كتابة هذه المقالة (تأملات في ظاهرية ابن حزم وإعجاز الرسالة المحمدية) [١]، استدراكًا على منهج الإمام ابن حزم، واستكمالًا لرؤيته العلمية المنهجية.

الدليل العقلي أولى بحجية الوحي المحمدي:

فمن المعلوم أنَّ الإمام ابن حزم الأندلسي يُعدُّ من أبرز الشخصيات العلمية التي لا يمكن أن يخطئها طلاب الفكر الإسلامي وتاريخه، فقد تميَّز فكره بأنه فكر علمي منهجي منضبط، يلتزم العقل والواقع والتجربة والحواس، في غايةٍ من الجرأة والوضوح، ويرفض قبول الخزعبلات والتوهُّمات والتهويمات، مهما تلبست من الثياب والأحوال الفكرية والدينية، ومن الواضح أن عقلية ابن حزم العلمية المنهجية هي ذاتها من أهم الأسباب في تاريخ الأمة الفكري في العصور المتأخرة؛ التي أسهمت في التقليل من شأن ابن حزم، وإنكار منهجه العلمي؛ بسبب الخلل الذي آل إليه فكر الأمة، وبسبب طول عزلة مفكريها وعلمائها عن الواقع والحياة.

ومما يلفت النظر أن التزام ابن حزم « ظاهرَ نصِّ الوحي الإسلامي وحده » في أحكام الشريعة دون زيادة أو نقص – يمثل امتدادًا طبيعيًّا لمنهجيته العلمية التي التزمت العقلَ والحسَّ والتجربةَ؛ ولذلك فإن ما يصدر عن الغيب ويُوحى به من اللَّه، ليس في منهجه أن يزيد البشر عليه أو ينقصوا منه، فليس للعقل عند ابن حزم إلا أن يدركه كما هو دون زيادة أو نقص؛ لأن العكس من ذلك يؤدي إلى تأليه العقل أو إلى إلغائه عندما تخلط الشهادة بالغيب دون حجةٍ أو سندٍ عقلي معتبر، وقد أعمل ابن حزم عقله وعلمه ودرايته ومنهجه العلمي في فهم الوحي ونصوصه دون تزيُّد أو انتقاص؛ الأمر الذي جعله قادرًا على فهم الشريعة وأحكامها بنحوٍ أرغم منكري منهجه – قبل مريديه – على احترام فقهه وفكره، واعتباره حجة علمية شرعية لا يزال ينهل منها طلاب العلم والمعرفة حتى اليوم.

---

(١) انظر مجلة التجديد التي تصدر عن الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، السنة الثانية، العدد الثالث والعدد الرابع (ص ١٦٧ – ١٧٢).

عهود التقليد والتخلف تهمش نوابغ الأمة:

ويعدّ تجاهلُ أصحاب العقلية العلمية المنهجية من جمهور علماء الأمة في قرون التخلف أهَمَّ ظاهرة من الظواهر التي عانى منها فكر الأمة في تاريخه المتأخر، فقد أصابه الجمود، وأذبله تمزق المعرفة الإسلامية، واستحكام عزلة العلماء والمثقفين المسلمين في أروقة المساجد والمدارس، وهذا التجاهل والتقليل من شأن أصحاب العقلية العلمية المنهجية، وضعف الحفاوة بهم، لم يقتصر على ابن حزم وحده، بل نجد ذلك الموقف السلبي يمتد إلى جُلِّ أصحاب العقلية المنهجية العلمية، وجُلِّ أصحاب الفكر الإبداعي، مثل الإمام ابن تيمية الذي ناصبه العداءَ جمهورٌ كبيرٌ من العلماء والمثقفين، ووصموه بالمروق عن الدين، ومثل ابن خلدون الذي تجاهل فكرَه جمهورُ العلماء والمثقفين، وبقي مغمورًا مهملًا إلى أن كشف علماء الغرب من أصحاب المنهجية العلمية عن مدرسته، وأعطوها حقها من التقدير والعناية، وإن مثل هؤلاء كثيرون ممن أُهمل فكرهم وأُنكر منهجهم.

ومن يتأمل في حياة هؤلاء النوابغ النوادر في تاريخ الأمة الفكري المتأخر، منذ إغلاق باب الاجتهاد فيما بعد القرن الرابع الهجري، يجد أن هذه الفلتات الفكرية كانت نتيجة حياة علمية تختلف في طبيعتها ومسارها عن الأنماط الفكرية المدرسية السائدة؛ التي اتسمت بتمزق المعرفة، وعزلة العلماء عن الحياة، وعن الواقع؛ فابن تيمية، وابن حزم، وابن رشد، وابن خلدون، وأمثالهم، لم يكونوا علماء وفقهاء بين حلقات المساجد وجدران المدارس فحسب، بل كانوا أصحاب خبرة ودراية وممارسة اجتماعية حياتية وسياسية كوَّنت لديهم معرفة عقلية علمية متكاملة، وجعلت علمهم يتفاعل مع عملهم وممارستهم ودرايتهم؛ بحيث يتعاملون بأصالة مع واقع الحياة ومتغيراته المعاصرة لهم، ولذلك كانت جُلُّ آرائهم واجتهاداتهم - في ضوء عصورهم الزمانية والمكانية - أصيلةً نيرةً.

وعلى الرغم من اطِّراد منهج ابن حزم العلمي المنضبط في تعامله مع الغيب والشهادة، إلا أنه واجه مشكلة عويصة في بحثه عن ماهية الدليل العقلي في قبول مبدأ الوحي مصدرًا للمعرفة، وتمحيص حقيقته وحقيقة الشريعة وتقبلها والتزامها.

ولما كان منهج ابن حزم يلتزم العقلَ والشهادةَ، ولا يقبل دعاوى التوهُّمات والتهويمات الباطنية والغنوصية؛ كان لا بد له أن يجد دليلًا عقليًّا علميًّا منهجيًّا كأساس وقاعدة يستند إليها في تقبله للوحي (الغيب) والتزامه عقلًا.

وقبول حجية الغيب لا يمكن أن تتأتى عقلًا إلا بقبول صدقية الرسول ﷺ، وصدقية الرسالة، وهنا نجد ابن حزم موزعًا بين منهجه العقلي العلمي الذي لا يلتزم إلا العقل والحس والتجربة مصدرًا حقيقيًّا مشروعًا للمعرفة، وبين حسه النفسي الإيماني، ومعرفته العقلية بعظمة رسالة الإسلام، وضرورتها في اتساق الحياة البشرية واستقامة أمرها، وضرورة تكامل الغيب والشهادة في معنى وجودها.

ولذلك؛ كان لا بد لابن حزم أن يجد هذا الدليل العقلي الذي يتسق مع طبيعة فكره ومنهجه، ويمثل حلقة الوصل العقلية المنضبطة بين الغيب والشهادة، دون الوقوع في شرك التوهُّمات والتهويمات الغنوصية.

وحتى يجد ابن حزم دليله ويمسك به، حيث لا يمكن لمثله قبول دعاوى الاتصال الغنوصي بعالم الغيب، كان لا بد له من أن يلتفت إلى حياة الرسول ﷺ ليجد فيها دليله وسند صدقه العقلي والعلمي المنهجي الذي التزمه في فكره وأدائه، فصدقُ الرسول ﷺ لا بد أن يتأتى من دليل حيٍّ يلزم العقل بالقبول والتسليم؛ لذلك كان بحثُ ابن حزم عن الإعجاز في حياة الرسول ﷺ، هو الأساسَ العقليَّ العلميَّ المنهجيَّ، لقبول الرسالة، والتسليم بها في عالم الشهادة، ويتكامل بقبولها الربط العقلي بين عالم الغيب والشهادة، وهذا المنطلق العقلي المنهجي، هو المنطلق الوحيد السليم بالضرورة عند ابن حزم ومنهجه العلمي العقلي في قبول قضايا الغيب والتسليم بها.

ولكن ما وَجْهُ الإعجاز في حياة الرسول ﷺ الذي يستطيع ابن حزم أن يقدمه، وأن يلزم به العقلَ، ولا يدع معه مجالًا للجدل والشك والمنازعة؟

فعلى الرغم من سلامة منهج ابن حزم، وسلاسة وجهته المنهجية، إلا أنَّ من المؤسف أن ابن حزم أخطأ ضالته ولم يوفق في استخراج النتائج الصحيحة من المقدمات التي وضعها والتزمها؛ فالإعجاز الذي اهتدى إليه ابن حزم، انتهى إلى القول بإعجاز الخوارق المادية، وما يتعلق بها من قصص المعجزات، التي نسبت إلى الرسول ﷺ، ولكن هذه الخوارق، وإن صدَّق المؤمنون بعضًا منها، وسلَّموا بها في

يسر، إلا أنها يمكن أن تثير كثيرًا من الجدل العقلي والعلمي في سلامة السند والرواية ومبالغات الرواة وخداع الحواس وكثير غيره مما يمكن أن يمتد إليه الجدل والمماحكات سندًا ومتنًا؛ بحيث ينتهي الأمر عند الكثير من هؤلاء إلى القول بأن لزوم الإيمان بهذه الخوارق إنما يقتصر على من حضر هذه الخوارق فقط، وشاهدها، دون سواه من الناس، فإن قبل بها بعض آخر من الناس فهو من باب القابلية للتسليم بمثل هذه الدعاوى، ومن باب الحب والاحترام والإعجاب بصاحب الرسالة، أو من باب الحب والاحترام لأصحاب العلم والمعرفة الذين يسلمون بهذه الخوارق أو يتقبلونها خوفًا ورهبةً وطلبًا للنفع أو السلام، وهذا مما لا يوافق منهجَ ابن حزم العقليَّ العلميَّ.

وأحسب أنني على شاكلة ابن حزم في التوجه نحو التزام المنهج العقلي العلمي المنضبط؛ حيث واجهت السؤالَ نفسَه منذ نعومة الأظفار، وأنا على مقاعد الدراسة الثانوية في ربوع مكة المكرمة وجوار بيت اللَّه الحرام، حين يتفتح وعي اليافع في مثل تلك السنّ على معنى الوجود، وعلاقة الغيب بالشهود، وما يتبع ذلك من مواجهة حيرة نفس اليافع في اختيار السبيل الذي يجب عليه أن يسلكه، والعقيدة التي يجب أن يؤمن بها ويلتزمها في هذا الشأن المصيري الخطير.

ولما حُبيْتُ به من مكتبة أسرية زاخرة، وبيئة أسرية وديعة حميمة نَمَّتِ التوجه العلمي عندي منذ تلك السنِّ المبكرة، فقد توجَّه تفكُّري العلمي بصورة تلقائية بشأن هذه الإشكالية إلى حياة الرسول ﷺ، أتلمس فيها الحلقة المفقودة التي توجب صدقه في النقل عن عالم الغيب، وتوجب تقبل قدسية الرسالة والتزامها، ومن دون هذا الدليل والإمساك به فلا مجال عقلًا لهذا الالتزام، وإن كان ذلك لا يمنع من الإعجاب والتقدير لما قد يقوله « أدعياء » الرسالات إن كان في فكرهم ما يستحق الإعجاب والتقدير.

العقل أولى من الخوارق:

وعلى غير شاكلة ابن حزم فإنني لم أتوجه إلى البحث عن الدليل وعن الحلقة المفقودة في الخوارق المنسوبة إلى الرسول ﷺ ومصارعة إشكالات الروايات والمتون دون إنكار إمكانها، ولكن فكري اتجه إلى شخص الرسول ﷺ؛ وذلك أنني أعلم أن إدراك حقيقة الوجود وما وراء الوجود لا يمكن لعقلي أن يدركه، كما أنني أعلم أنه ليس بإمكاني الحديث إلى ما وراء عالم الشهادة: (اللَّه)، والسؤال عن حقيقة

الرسول والرسالة؛ ولذلك كان لا بد لي عقلًا من التوجه إلى البحث عن الإعجاز والدليل والحلقة المفقودة في حياة الرسول ﷺ ذاتها، على أساس من دواعي العقل والفطرة، ودون حاجةٍ إلى تجاوزهما أو الخروج عليهما أو إلغائهما باللجوء إلى الخوارق المادية، وتجاوزٍ للسنن الكونية، ولقد وُفِّقتُ - في ظني- وفي تلك السن المبكرة إلى الدليل العقلي العلمي على صدق الرسول والرسالة، من دون الحاجة إلى ضرورة قبول الخوارق شرطًا للتسليم بصدق الرسول والرسالة، وهو ما دعاني إلى كتابة هذه المقالة لاستكمال الإضاءة المنهجية العقلية العلمية، ولسدِّ ثغرة مهمة في هذا العصر العلمي؛ لاستعادة الرؤية الكونية الروحية الإنسانية في مواجهة الرؤية المادية الحيوانية؛ حتى تكون « القوة للحق » وليس « الحق للقوة ».

فمنذ تلك السن المبكرة حتَّم المنهج العلمي في تصوري أن يتمّ إثبات صدق الرسالة الخاتمة بأسلوب عقلي علمي يلزم الأجيال على تعاقبها، بصدقها؛ بحيث تترك لدى المتأخر منهم يقينًا لا يختلف في جوهره عن يقين مَنْ عاصر الرسالة وصاحَبَ الرسول ﷺ، ولذلك كان لا بد لإعجاز الرسول ﷺ أن يتم على أساسٍ من قواعد العقل والسنن التي جاءت رسالته باحترامها وطلب التزامها؛ فتأييد رسالة الرسول ﷺ على الحقيقة ما كان له - على ضوء هذا المفهوم والمنهج - أن يتعلّق بحادثة أو حوادث خارقة، متفرقة، تتجاوز العقل والحس، ولا تلزم الباحث العلمي بالنواميس والسنن.

ولما كان مربط صدق الرسالة - على ضوء هذا المنهج - لا بد أن يتعلق بشخص الرسول ﷺ، كان من المهم النظر بدءًا في سيرة الرسول ﷺ، وفي حياته، أجزاءً متفرقةً، وكلياتٍ مجتمعةً، وقياسها على حياة البشر وفطرتهم؛ ليُرى كيف تأتَّى لهذا الإنسان عقلًا أن يحمل رسالة الغيب إلى الناس، ويحملهم على تصديقها.

لقد جاءت رسالة الإسلام - في ضوء التاريخ، كما يقول المؤرخون - على غير ما سبقها من أديان ورسالات؛ فقد حفظ التاريخ لنا نص رسالة الإسلام وسيرة حياة الرسول ﷺ، وأوضح لنا التاريخُ، ونصُّ القرآن الكريم، أن محمدًا ﷺ كان بشرًا، وعاش حياة البشر، وكانت مفردات حياته بشرية مستقيمة؛ لذلك فإن إعجاز رسالته ودليل صدقها لا يصحُّ أن يخرج عن الطبيعة البشرية التي توجَّه الخطاب إليها، وهو الذي سيضع البشرية على جادة مرحلة العلمية والعالمية. ولكن أين الإعجاز في حياة

هذا « البشر » ؟ وأين الدليل القاطع عقلًا على صدقه رسولًا يبلغ رسالة خيِّرة ملزمة عقلًا صادرة عن عالم الغيب؟

شروط صدق الرسالة:

لقد توافر للرسالة المحمدية (القرآن) الشرطان الأساسيان لإمكان اعتبارها رسالة ربانية.

وأول هذين الشرطين شرط التوثيق: فقد توافر للرسالة المحمدية (القرآن) – دون سواها – التوثيق التام، وهو ما لم يتوافر للوثائق الأساسية التي بين أيدينا للأديان الأخرى؛ حيث إن القرآن الكريم كُتب وروي على عهد الرسول ﷺ، ولا يزال يروى من قبل المقرئين المتخصصين كاملًا شفويًّا بأسانيد متصلة متواترة حتى اليوم، إلى الرسول ﷺ، كما أن القرآن الكريم مطلوبٌ قراءةُ شيء منه في خمس صلواتٍ يومية في حياة كل مسلم، كما أن جُلَّ المسلمين يتطوعون بقراءته وحفظه والتعلم منه والتعبد والتبرك به طيلة حياتهم؛ وهذا يجعل توثيقه لا يضاهيه أيُّ توثيق لأية وثيقة تاريخية، ومن العجب أن يتم الإعجاز التوثيقي الفريد في أمة أمية ليس لها في العلوم والمعارف والفلسفات والثقافات مقامٌ أو باعٌ.

كما أن الرسالة (القرآن) توافر لها الشرط الثاني وهو شرط الخيرية: فالقرآن الكريم يحضُّ أيضًا دون شك على الخير والعمل الصالح في الحياة الدنيا، وإلا فلا مجال لاعتبارها – أصلًا – رسالةً مقدسةً من مبدع الكون والحياة، ولعل قول اللَّه ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]، هو من الآيات الجامعة التي توضح طبيعة الرسالة القرآنية والقصد منها في حياة الإنسان المسلم.

وإذا كان التوثيقُ وقصدُ الخير شرطين ضرورين لكي تكون الرسالة إلهية، فإن ذلك في حدِّ ذاته غير كافٍ لمنع الجدل في أمر صدور سفر موثق، يحض على الخير، أن يصدر عن بشر يريد « بادعاء » الرسالة تعظيم عمله وإضفاء القدسية عليه؛ لذلك لا بد من توافر شرط ثالث، يقيم على وجه من وجوه الإعجاز العلمي العقلي، الدليلَ القاطع، على أن محمدًا ﷺ رسول صادق، يبلغ رسالةً صادرة عن اللَّه (عالم الغيب)؛ حتى تكون بذلك رسالة إلهية صادقة ملزمة للبشر.

ومن هنا جاءت أهمية الالتفات إلى شخصية الرسول ﷺ عقلًا، والنظر في حياته ومفرداتها؛ لتلمس الدليل القاطع منها ذاتها على صدقه وصدق رسالته، ولا سيما أننا لن نستطيع التواصل مع اللَّه ﷻ مباشرة، لطلب العلم بحقيقة أمر الرسول ﷺ والرسالة، وكيف لنا غير ذلك والرسالة ذاتها عقلية علمية، بدأت بـ ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾، وجاءت بكتاب، وحضَّت على العلم والفكر وطلب الدليل والبرهان، وقامت على فهم السنن والأسباب؛ الأمر الذي يؤكد مرة أخرى ضرورة النظر في سيرة الرسول ﷺ، وفي مسيرة حياته، وصفات شخصيته، ومفردات تكوينه؛ لمعرفة مؤهلات حمله الرسالة، ودليل صدقه العقلي في حمل هذه الرسالة.

معجزة الهرم المقلوب العقلية:

ولو أعملنا العقل والعلم، وتمعنا في مفردات حياة الرسول ﷺ، وفي مفردات قدراته وصفاته، فلن يعوزنا الدليل؛ لأننا سنجد أن هذه المفردات – مهما كانت عظمةُ كلِّ واحدةٍ منها منفردةً – لن تمنع الجدل في إمكان أن يتصف بالصفة الواحدة منها إنسان أو آخر، إلا أننا لو تمعنا في حياة الرسول ﷺ في جوانبها المختلفة كافة؛ لتبين لنا أن الإعجاز في حقيقته لا يكمن في عظمة كل صفة من صفاته الفردية فحسب، ولكن الأهم أنه يكمن في اجتماع كل هذه الصفات الفائقة، وما ارتبط بها من ممارسات وإنجازات، في شخصية رجل واحد، وعلى الوجه الذي تمَّ؛ فوجه الإعجاز إذن ليس بالضرورة في بشرية أية صفة من صفات الرسول ﷺ، ولكن في اجتماع كل هذه الصفات، ونظام تفتحها في حياة رجل واحد من البشر، ولا سيما في ظروف حياته الخاصة، وظروف صفات مجتمعه الحضارية على ذلك العهد.

وجمال هذا الإعجاز، وجمال روعته العقلية والعلمية، أنه لم يُخْرِج الرسول ﷺ عن طبيعته البشرية، ولم يؤدِّ قبولها إلى إلغاء العقل والمنطق الإنساني، ولم يَحُلْ ذلك أو يمنع أن توجه الرسالة إلى البشر، وأن تخاطبهم من خلال فطرتهم وطبائعهم، ومن خلال اطِّراد السنن لديهم، فكان هذا الإعجاز العقلي العلمي البشري هو حلقة الوصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وهو الدليل العقلي العلمي القاطع على صدق الرسول ﷺ وحجية الرسالة، وبذلك تكون أي الخارقة من الخوارق – إن صحت – دعمًا وتأييدًا وليس ضرورة، ولا شرطًا للإيمان والتصديق.

وحتى نتبين ما عنيناه من الإعجاز الكلي العقلي العلمي الإنساني في حياة الرسول ﷺ فإنه لا بد لنا من رحلة سريعة في سيرة حياته ﷺ؛ لنتتبع أمهاتِ صفاته وأحداثَ حياته، ونجمع بعضها إلى بعض، ونستطيع بذلك أن نرى كيف يمثل اجتماعها وجه الإعجاز العقلي العلمي البشري في حياة محمد ﷺ ورسالته، من دون حاجةٍ أو ضرورة إلى الخوارق التي قد لا تتسق رواياتها، مع منطلقات « الرسالة »، ولا مع طبيعة المرحلة العلمية العالمية الحضارية البشرية التي تبدؤها وترشِّدها تلك الرسالة.

لقد ولد محمد ﷺ ونشأ يتيمًا يسيرًا في حضن جده عبد المطلب، ثم من بعده في حضن عمه أبي طالب، في وادي إبراهيم الجدب من كل شيء، وفي صحراء بلاد العرب، فقد توفي أبوه قبل أن يولد، وتوفيت أمه وهو ابن ست سنين، ومع أنه نشأ يتيمًا بفقد الأم والأب إلا أنه لم يحرم بفضل اللَّه حبَّ الأمومة وعطفها وحنانها في مرحلة الطفولة الأولى التي هو في أشد الحاجة الإنسانية إليها، ولا يمكن لغير فطرة الأمومة وحس أمنها ورعايتها توفيرها للصغير، رحمة من اللَّه به. ومرَّ محمد رسول اللَّه ﷺ بمختلف مراحل الحياة التي لو كان له فيها دعاوى أو تطلعاتٌ أو مطامعُ وطموحاتٌ بشرية لما أمكن لبشر أن يخفيها، أو أن يخبِّئ أمرها، على مدى أربعين عامًا من عمره؛ بحيث لا يبدو منها شيء قبل أن تتفتح قدرات لاحق مسيرته وما تفتحت عنه حياته، من العلم والحكمة وقدرات القيادة والريادة الفائقة في كل أمر تصدى له، وبنجاح بالغ، بعد أن أعلن أمر الرسالة وقد تجاوز سنُّه الأربعين عامًا.

كانت حياة محمد ﷺ صبيًّا ويافعًا وشابًّا ورجلًا مكتمل الرجولة، وكهلًا وأبًا وزوجًا حتى سن الأربعين، حين أنزل إليه الوحي والرسالة، تتسم بالصدق والأمانة والوداعة وحسن الخلق؛ الأمر الذي دعا امرأة من كرام قومها وعقلائهم، هي السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، أن تأتمنه على مالها، وأن تخطبه لنفسها؛ تقديرًا منها لصفاته الكريمة.

وأول ما يلفت النظر أن هذا الرجل حين يبلغ سنَّ النضج في سن الأربعين، وهي السن التي تهدأ فيها عواصف الرعونة عند البشر، ويخمد الكثير من أوارها، عند من كانت عاطفته وطموحاته ملتهبة؛ لأنها هي السن التي تبدأ تكبح جماح التطلعات الجامحة، وتلجمها، ولكن العجيب أننا نجده في هذه السنِّ على غير المألوف، البشري، يقدِّم نفسه – وهو الرجل البسيط الوديع، صاحب الخلق الرفيع – على أنه

صاحب رسالةٍ إلهية، خطيرة خيِّرة، يحملها إلى قومه من عالم الغيب إلى الإنسان، يدعو فيها قومه والبشر من ورائهم إلى التوحيد والإخاء والعدل والتفكر ومكارم الأخلاق وطلب العلم والإصلاح والتسامح وحرية العقيدة، ونبذ البغي والطغيان والظلم والفساد والبطر.

وقابله قومه – وهم سدنة البيت وعبدة الأوثان – بالدهشة والإنكار لهول القول وخطورة الأمر وجليل العواقب، على مألوف عقائدهم ونمط حياتهم ومنكر ممارساتهم وعلاقاتهم، ومن العجيب أن يُلزِم هذا الرجل قومه الحجة، عن صدق دعواه، بتذكيرهم بصدقه على مدى حياته بينهم حين وقف على سفح جبل الصفا ودعا قومه فلما أجابوه قال لهم: « **لو أنني أخبرتكم أن جيشًا يأتي من خلف هذا الجبل، أمصدقي أنتم؟** » قالوا: بلي ما جربنا عليك كذبًا، فقال: « **إني رسول اللَّه إليكم** »، ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى بقوله: ﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

فكيف له – مع كل هذا، على هذا المدى، منذ ولد – أن يكذب عليهم حقًّا بعد كل هذا، وفي هذا الأمر الجليل؟ هل كان بإمكان محمد ﷺ، أو أي بشر آخر، أن يلزم نفسه الصمت وكبت القدرات وكبح التطلعات والطموحات، على مدى حياته كلها، وفي كل أطوارها؟ وهل كان يستطيع، أو أي أحدٍ غيره، أن يلزم نفسه صفة الصدق، منذ مولده حتى سن الأربعين من عمره، وهو يدبر الأمر، ويخفي الطموح والكذب؛ لكي يلزمهم، في هذه السن، تصديق أكاذيبه وتلفيقاته؟ ما كان لبشر بما كان يلتزمه من الصدق والأمانة أن ينطوي سره على ما تفتقت عنه الأيام من قدرات وإنجازات، فلا يعلمها أحدٌ حتى سن الأربعين، لولا أنه نشأ وأُعِدّ حقًّا، على عين اللَّه؛ حيث لا يتصف طوال هذه السنين بشيء من القدرات والطموحات، ولم يتمتع بشيءٍ من الخبرات والممارسات التي يمكن أن تُعِدَّه لما ستتفتق عنه الأيام من قدرات وإنجازات مذهلة، وحينئذٍ – وقد تجرد من كل ذلك – تصبح صفات الأمانة والصدق والاستقامة وحدها الصفات الأساسية المطلوبة لكل رسول مبلغ.

وهكذا نجد أن هذا النوع من الدعاوى والقدرات التي انبثقت في حياته بعد سنِّ الأربعين، وإن كانت مفرداتها في جوهرها بشرية، إلا أن اجتماعها كلها، وعلى النسق

الذي تفتقت عنه، وبالقدر الذي برهنته، وخاصة في تلك البيئة البسيطة، في حياة رجل واحد بسيط، هو الإعجاز الذي يلزم العقل، ولا يخرج به عن فطرته وطبعه.

إن العجيب المعجز المدهش عقلًا أن ينتصب هذا الوديع الصادق الأمين عودًا صلبًا داعيًا إلى الإصلاح، وهو رجل أمي في أقصى الأرض، من أمة بدوية أمية؛ حيث لا فلسفات ولا أروقة، ولا مكتبات، ومن دون سابق خبرات عامة أو قيادية؛ ليبدع القول الفصيح الرائق الخيِّر، على غير ما عرفته فصاحة العرب، ويصر في عزم الشباب على دعوته، على الرغم مما يناله وأصحابه من الأذى والعذاب، على مرِّ السنين، بل إنَّ الأذى، ومقاومة قومه قريش وتمسكهم بأوثانهم ومنكراتهم، كان يزيدُه - كما كان يزيدُ أتباعَه - الإصرارَ على الدعوة، والصبر على الأذى، في وقتٍ لا تبدو لأصحابه وأتباعه بارقةُ أمل في استجابة مَنْ حولهم، ولا يبدو لحلكة ليل ما يلقون من الأذى انقشاع. وتزداد الدهشة أنه بعد ثلاثة عشر عامًا من الدعوة دون ملل، ومع الصبر على الأذى دون كلل، أن تأتي ساعة الانطلاق وقد استجمعت الدعوة طاقتها؛ لتؤمن قبائل الأوس والخزرج من سكَّان يثرب فجأةً ودون سابق حسبان، وأن يتعاهدوا على الانقياد للرسول ﷺ، ونصرة الرسالة التي يحملها.

من العجيب أن محمدًا رسولَ اللَّه ﷺ - وهو من نعلم سيرته ونشأته، وبقدرة فائقة، ونجاح منقطع النظير - أقام بالفعل، وفي مدى عشر سنوات فقط، دولةَ أمةِ عدلٍ وتسامحٍ وإخاءٍ وإحسانٍ وحريةِ عقيدةٍ، يسوس فيها ببراعة، ويحكم فيها بعدل، ويقضي ويدبِّر الأمر بحكمة، ويبني النظام، ويقود الجيوش المنتصرة التي تخضع كافة قبائل العرب في فيافي صحاريهم وقمم جبالهم، وتقهر مؤامرات قبائل اليهود وتدبيراتهم، خلف حصونهم ومنعة صياصيهم، في الوقت الذي يجري على لسانه القولُ الخيرُ الفصيحُ المعجزُ حكمةً وهدايةً ويسرًا ورشدًا.

أليس من العجب العجاب، أن يخطر على عقل بشر، أنه يمكن أن يكون لبشر واحد كل هذه الإمكانات والقدرات والطموحات، وفي تلك البيئة، من دون أن يبدي منها شيئًا على مدى صباه وشبابه ورجولته، وفي كل أحوال حياته؛ زوجًا وأبًا وحتى سن الأربعين من العمر؟ ومن دون أن يكون في حياته وبيئته وخبراته الحياتية ما ينشئها ويرعاها وينميها. هل كان ذلك حقًّا في طاقة بشر أن يخطط لمثل هذا

الأمر، وبهذا القدر المحكم، على مدى الأربعين عامًا منذ أن ولدته أمه، فلا يبدو منه، ولا من قدراته، ولا من طموحاته، شيءٌ؟ ثم كيف لهذا الأخضر العود، قليل الخبرة والتجربة، إن لم يكن عديم الخبرة والتجربة، أن يتصدى للقادة والسادة والكهانات والقبائل والصناديد مجتمعة؛ ليهزمهم في الحكمة والتدبير والسياسة والحروب والمعارك والمنازلة، لتنتهي دعوته ودولة رجاله وأصحابه إلى هدم إمبراطوريات الظلم والجور الكبرى في بلاد حضارات عتيدة مترامية الأطراف في دولة حضارة فارس وبلاد دولة حضارة الروم، وأن ينتشر ضوء رسالته على مدى القرون في أرجاء الأرض كافةً، على الرغم من اختلافها شعوبًا وألسنة وألوانًا؟

إن النهج الذي تفتح فيه عود محمد ﷺ وصفاته وقدراته منفردة ومجتمعة على مدى ثلاثة وستين عامًا، هو المعجزة الحقيقية لتأييد صدق رسالة محمد ﷺ وحجيتها؛ والتي آمن بها رجال أفذاذ من قومه برهنوا على تميزهم وقدرتهم على صفحات التاريخ، عرفوه وخبروه، وهم من خيرة بني قومه وأنداده سنًّا وبيئةً، منذ عهد الصبا، وتابعوه وآمنوا به على حال لا يرجى – على مدى ثلاثة عشر عامًا من الأذى والمعاناة – من ورائها طمع ولا نفع، فكيف لأحد أن يأتي بعد أحقاب طويلة، يضاف إليها ما نعلم من وجوه إعجاز القرآن الكريم؛ ليدَّعي أنه أقدر من هؤلاء الأصحاب بصرًا أو بصيرةً، وليعرف من أمر محمد ﷺ ما لا يعرفون، ويحكم في أمره بما كانوا عنها غافلين!

إن حياة محمد ﷺ، ونهج نموه، وتفتح طاقاته وقدراته، على النهج الذي تمَّ، أمرٌ يرى وجْهَ الإعجاز فيه كلُّ إنسانٍ علمي منصفٍ عاقلٍ، وإن أي إنسان منا قد لا يجد غرابةً في أي مفردةٍ من مفردات حياة محمد ﷺ، برغم أنها حتى في كثير من وجوه مفرداتها فريدةٌ معجزةٌ متميزةٌ، ولكن المعجز المستحيل هو انتظام كل هذه المفردات في حياة رجل واحد على تلك الحال، وعلى مدى ثلاثة وستين عامًا.

بناء حياة البشر أشبه ما يكون ببناء الهرم؛ فهو ينطلق من قاعدة واسعة من التربية والتعليم والتلقين والمهارات والتجارب والممارسات، لينتهي بالبعض القليل إلى قمة القدرة والمهارة في أمر أو آخر من شؤون الحياة؛ قائدًا منتصرًا، أو رجلَ دولة وسياسة ماهرًا، أو رجلَ أدبٍ وشعر وفصاحة وقلم مؤثرًا، أو رجلَ علمٍ وبحث مبدعًا دؤوبًا،

أما حياة محمد ﷺ فهي عكس ذلك؛ مثلها مثل هرم مقلوب يبدأ من قاعدة محدودة ضيقة جدًّا؛ لينتهي إلى قمة واسعة رحبة، في كل وجه من وجوه الحياة، قيادةً وحكمةً وسياسةً وبيانًا، يبزُّ به القادة والحكماء والعلماء والفصحاء، ولعل الأولى مثلًا في وصفه، ليس الهرم المقلوب، ولكن وصفه بأكمام الزهر المثمر الذي يتفتح بجماله وعطره وثمره، من عود أخضر غضّ رهيف، فيكون آية من أبدع آيات اللَّه سبحانه.

الرسالة التي – إن أُحسِنَ تلقيها وفهمها – تبعث السلام في النفس، وتشيع الإخاء والتراحم بين البشر، وتدعو إلى العدل والحق والخير والعلم والسلام، إنها رسالة معجزة خيِّرة، متواترة النص، صادرة عن صادق أمين زكي في خلقه، معجز في تكوينه وقدراته، ومعجز في الكتاب المعجز الذي نُزِّلَ عليه، لا بد أنها رسالة صدق منزَّلة، لا يمكن للإنسان العاقل إلا أن يقطع بصدقها، فليس لهذه الرسالة إلا أن تكون رسالةً من اللَّه الخالق البارئ الواحد الأحد المصور، يحملها رسوله الصادق الأمين إلى البشر، رسالة هداية وترشيد، يتكامل فيها عالم الغيب وعالم الشهادة، ويتجلى بها معنى الوجود الإنساني المكرم خليفة الأرض وأن هذا الوجود له غاية أخلاقية سامية تعمر الأرض وهي غاية تدل عليها نوازع الفطرة الإنسانية السوية وتدعو إليها.

إشكال لا شك:

إن إدراك هذا الوجه في إعجاز رسالة محمد ﷺ، الذي يتفق وأحوالَ الفطرة وطباع البشر، كان أولى بمنهج عقل علميٍّ نيِّر كابن حزمٍ، وهذا الإدراك هو أولى اليوم بالعقل المسلم في مسيرته نحو المنهج العلمي والتخلص من انحرافات ضلالات التهويمات والغنوصيات والخزعبلات والشعوذات وأوصارها.

لقد مكَّنت هذه التأملات العلمية العملية منذ نعومة الأظفار إيماني بهذا الدين رسالةً قدسيةً، وجعلتني مسْلِمًا بالخيار لا بالمولد والهوية الأبوية، أو المكانية، كما أرست فكري على سبيل العلم ومنهج السنن والعقل، وحَمَتْه – بفضل اللَّه – من أوضار الخرافة والأوهام والخزعبلات؛ ولهذا فما واجهتني بحمد اللَّه – بصدد رسالة الإسلام – شبهةٌ إلا كانت عندي مجرد إشكال يحتاج إلى نظر علمي منهجي؛ لمعرفة وجه الإسلام والحق في الأمر، وليس شكًّا يدعو إلى الريبة والإحجام والتردد.

على ضوء ذلك كان منهجي في النظر في أي أمر أواجهه أو شبهة أواجهها يتكون

من شقين: الأول منهما: هو معرفة طبيعة المشكلة معرفة علمية منهجية، والثاني منهما: هو أخذ جزئيات نصِّ الوحي الإسلامي في ضوء كلياته ومقاصده، ومن دون ذلك المنهج في رأيي لا يكون إلا التخريف والتهريف الذي يجب أن نتلافاه، في ممارساتنا الفكرية وأن نضع له حدًّا في بناء مناهج علمنا وتعليمنا وتكوين كوادرنا العلمية والقيادية؛ فبذلك تجمع مناهج علمنا وتعليمنا في جميع أوجهها، معرفةَ جوهر الدين ورؤيته ومقاصده ومبادئه وقيمه ومفاهيمه، إلى جانب المعرفة العلمية بالسنن الفطرية والكونية في مختلف المجالات الإنسانية والفيزيائية؛ لتولِّدَ علمًا ومعرفةً وممارسةً حقيقية فعَّالة عمرانية، تحقق رؤية الإسلام ومقاصده، وتفعِّل مبادئه ومفاهيمه وقيمه في واقع الحياة على مدى الزمان والمكان.

– جزى اللَّه ابن حزم خيرًا؛ أن دعاني التمعن في منهجه إلى الاستدراك عليه دون انتقاص من قدره العلمي الجليل؛ لأشارك وأطرح رؤية وتجربة مررت بها في ريعان الصبا، والتي لا بد أن يمرَّ بها – بشكلٍ واعٍ أو غيرِ واعٍ – كل يافع في حيرته وبحثه الفطري عن علاقة الشهادة بالغيب في مصدر حياة الإنسان على وجه هذه الأرض، وعلى مصيره ومصير حياته ووجوده، بعد أن يُدفَنَ في باطن هذه الأرض التي نما جسده من طينها، وترعرع عوده من ثراها، ليعود بين الأحياء مجرد ذكرى وطيف وحفنة تراب. لقد كانت هذه الرؤية وهذا المنهج خير عونٍ لي فيما مضى لي من حياتي؛ لأنها مثلت في حياتي رؤيةً وتجربةً حية أرجو أن يكون فيها شيءٌ من النفع ودعوة للتفكر والتدبر وأخذ الحياة لما منحت من أجله بالجدية المطلوبة؛ الأمر الذي يثري حياة شبابنا الذين هم ذخيرة أمتنا وذخيرة الإنسانية، لهداية البشرية إلى طريق الحق وحضارة العدل والإخاء والإعمار والتسخير الإنساني القويم، وإلى الفهم والسلوك السليم؛ الذي يحقق معنى الحياة والذات؛ بكل مسؤولياتها وإيجابياتها ومتعها الطيبة، من دون إفراط ولا تفريط.

– إنني أرجو أن يجد الشباب والقراء في سيرة هذا الرجل العظيم، وكل من كان على شاكلته من نوابغ أسلافنا، زادًا يضع فكرهم على جادة المنهج العلمي العقلي الإيماني القويم؛ ليحققوا غاية الاستخلاف وتكامل الوحي والفطرة، وليكون ذلك دليلًا لحياتهم، وهدايةً لإعمارهم، وتوخيًا للخير والبذل والعطاء في مسيرة حياتهم، بإذن اللَّه.